المحافظة على الأمس.. والغد..!

د. زاهر بن عبدالرحمن عثمان
المدير العام لمؤسسة التراث

يرتبط اسم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز بالكثير من الإنجازات في مسيرة التنمية الوطنية الشاملة. وتبدو العناية بالتراث ضمن أبرز تلك الإنجازات، فقد كانت له - حفظه الله - الريادة القوية الواثقة من خلال عدد من الإنجازات، لعل أبرزها المهرجان الوطني للتراث والثقافة بالجنادرية، الذي أصبح مناسبة وطنية مبهجة، عميقة الفكرة، قوية التأثير تسعى إلى تأصيل الجوانب المختلفة للموروث الوطني، وتعريف الأجيال بأبعاده وملامحه. وتطورت فكرة المهرجان وعناصره تدريجياً، لتتجاوز التراث الشعبي إلى التراث العمراني والثقافي.

وقد انبثقت فكرة المهرجان من حماسة وقناعة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله، التي دعمها وأيدها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - وعمل على إعطائها الدعم الذي تستحقه.

وقد حقق المهرجان منذ افتتاح دورته الأولى على يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله- عام ١٤٠٥ حضوراً واضحاً في خريطة الحياة الثقافية بالمملكة.

استمر تطور المهرجان بما يلقاه من عناية كريمة، وتعدى تأثيره ليصبح فعالية ثقافية معتبرة على الصعيدين: الإقليمي والعربي، وأصبحت الندوات الثقافية المصاحبة للمهرجان الموعد المنتظر للمثقفين، مع ما يقدمه من مساحة واسعة من الحرية الفكرية، كما أصبح موقع المهرجان معرضاً حياً يقدِّم الملامح المتميزة للتراث العمراني الأصيل لمناطق المملكة، ويعنى بالتراث الشعبي معمقاً العلاقة بكثير من العادات والتقاليد والحرف. وكان المهرجان نقطة التحول في الأنشطة الثقافية التي تعنى بالمرأة والطفل، وبداية انطلاقة قوية لحضور ثقافي بارز للمرأة السعودية. وتعددت الأنشطة فشملت معارض للكتاب، وأمسيات ثقافية وأدبية، ومعارض للمقتنيات والفن التشكيلي والصور. وصار لما يسمى بالأوبريت الحضور الرسمي المدعوم للاستعراضات ذات البعد العميق الحامل - بفخر - للأبعاد المحلية والعربية والإسلامية. وقد أصبح المهرجان يحظى بمشاركات خليجية، وعربية، وعالمية.

يبدو من الغني عن الإضافة الإشارة إلى أن فكرة المهرجان جاءت مرتبطة بحدث تراثي آخر هو سباق الإبل السنوي، الذي يعدّ في حد ذاته حدثاً تراثياً جميلاً، ما لم يخل المهرجان الوطني للتراث والثقافة من عروض للفروسية تمثل شمولية اهتمام خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بالفروسية التي تكاد تكون الصفة الأولى المنطبعة في الأذهان عنه، حفظه الله، كيف لا، وهو الأبرز في العناية بها وتطويرها وتأصيلها، والانتقال بها إلى الحضور العالمي، لتؤكد الارتباط الوثيق بينها وبين أصالة الإنسان السعودي.

كان إنشاء خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة عام ١٤٠٨ خطوة مهمة أخرى في العناية بالتراث السعودي. فبالإضافة إلى دورها المعرفي

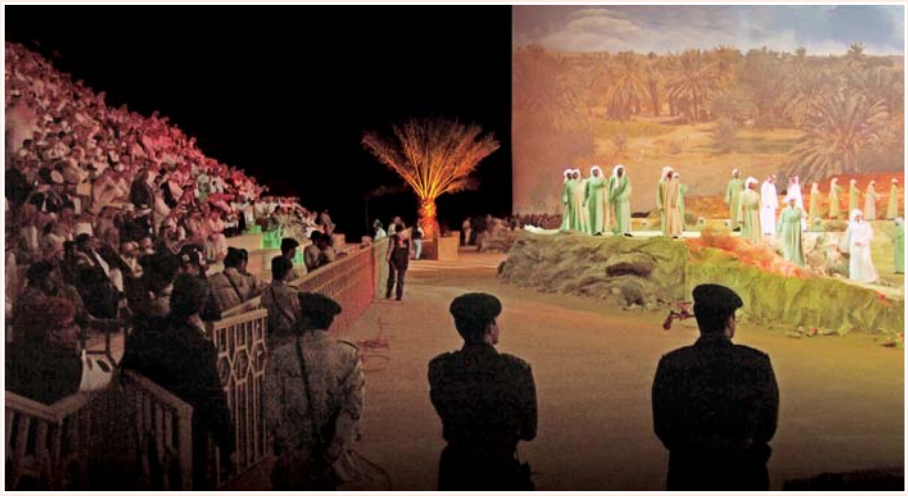

الخاص، الذي يجعلها أبرز مكتبات المملكة، تعنى المكتبة بتوثيق تاريخ المملكة العربية السعودية وتراثها. كما تعنى بالتراث العربي والإسلامي، الذي مرد جذوره الأعمق إلى هذه البلاد، وتسهم بجد في إحيائه. وتحتفظ المكتبة بمجموعات من أندر الصور التاريخية للمملكة، كما تحتفظ بمخطوطات رائعة ذات علاقة بتاريخها. وتسهم المكتبة بدور مؤثر في حركة البحث والتأليف والترجمة والنشر. ولعل الأقسام الخاصة بالمرأة والطفل في المكتبة تبين مدى الاهتمام ببلوغ رسالة المكتبة أفراد المجتمع كافة. كما أن اهتمامها بإنشاء قاعدة معلومات للفروسية يعد استمراراً لاهتمام مؤسسها بهذا الجانب من التراث. وتشارك المكتبة بفعالية في المجتمع من خلال المعارض والندوات، كما تسهم في التعريف بتراث المملكة في المحافل الدولية.

يحرص خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز على استمرار كثير من الملامح الأصيلة للتراث، التي تمثل بعضها في روعة كثير من العادات والتقاليد. ولعل من تلك تلمسه لاحتياجات المواطنين، ودراسة أحوالهم عن كثب. ولن تنسى القلوب قيامه - حفظه الله - في رمضان سنة ١٤٢٣، بزيارة تفقدية لبعض الأحياء القديمة في مدينة الرياض، حيث دخل بعض المنازل التي يعاني أصحابها شظف العيش، وشاهد واقعهم المؤلم؛ ليوجه بعدها بوضع إستراتيجية وطنية لمعالجة الفقر، ومن ثم إنشاء الصندوق الخيري الوطني لهذه الغاية النبيلة. ويأتي حرص خادم الحرمين الشريفين على مشاركة المواطنين في مناسباتهم بروحه الإنسانية، واستقباله للعلماء والمشايخ، وزيارته لهم، شيئاً من زاد لا ينفذ من تطبيق عملي لذلك التراث الأصيل.

يدرك الكثيرون حجم التحديات والإنجازات، ولعلهم أقرب إلى فهم ما له علاقة مباشرة بالجوانب التنموية. ويقدر الكثير ما تم من جهود حيال التراث، إلا أنه قد يخطر ببال بعضهم أن تلك العناية بالأمس متمثلاً في جوانب التراث المتعددة هو حفاظ مشوب بالعاطفة، ومشحون بالحنين. ولعل الفئة الأقل هي التي تدرك ما للعناية بالتراث من أبعاد وآثار مستقبلية. لعل أبرزها الحفاظ على الهوية الوطنية. وهنالك الكثير من الآمال التي تتطلع بثقة إلى خادم الحرمين الشريفين، ليأخذ بها إلى مسار التحقيق، فما تم تقديمه للتراث، على روعته، لا يتناسب وما يستحقه تراث مثل هذه البلاد من عناية. ولعل العناية بتراث الحرمين الشريفين هو أولى ما ينتظر منه التحقيق إذ طالت إلى ذلك التطلعات. كما أن العناية بالتراث العمراني ترتقب مساراً أفضل بإذن الله، وللجوانب الأخرى من التراث أبواب أخرى نثق أنها ستفتح بالتتابع من أجل غد أمثل.